سياسة النهب التى مارسها الولاة العثمانيون فى اليمن تذمرا متزايدا بين الاهالى . وفى اواخر القرن السادس عشر تزعم ائمة القبائل الزيدية انتفاضة قوية ضد العثمانيين تكللت بطردهم من اليمن نهائيا فى بداية ثلاثينات القرن السابع عشر . ولاول مرة توحدت الاراضى الشاسعة (المنطقة الجبلية وساحل البحر الاحمر — تهامة وعسير وجنوب اليمن بما فيه عدن وحضرموت) تحت سلطة الائمة الزيديين الذين اختاروا صنعاء عاصمة لهم .

الا ان توحيد اليمن المكونة من عدة امارات ومشايخ قبلية كان كيانا لدولة غير متينة . فبنتيجة الغزو العثمانى الذى اعاق التطور الاقتصادى فى اليمن غدا هذا البلد من اكثر بلدان العالم العربى تخلفا . وكان الاقتصاد زراعيا صرفا تسوده النماذج العينية وشبه العينية ، وظلت العلاقات الاقطاعية محتفظة بسمات المعيشة العشائرية . ولم تكن قد ظهرت بعد الاتجاهات الاقتصادية التى من شأنها ان تساعد على توحيد اليمن . وفى هذه الظروف لم يتمكن الائمة الزيديون من الاستمرار طويلا فى بسط سيطرتهم على المناطق الجنوبية التى يسودها المذهب السنى الشافعى خلافا للمناطق الشمالية . زد على ذلك ان البدو الرحل الذين لم يعترفوا ابدا بالسلطة المركزية كانوا يشكلون قسما كبيرا من اهالى الجنوب . واسفرت الفوضى الاقطاعية العشائرية فى المناطق البدوية وانعدام الروابط الاقتصادية الوثقى بين الامارات والمشيخات الصغيرة وطموح الحكام المحليين الى الاستقلالية عن تضعضع وحدة اليمن .

وفى اواخر القرن الثامن عشر تقوضت الامامة الزيدية التى كانت قد وحدت مساحات شاسعة فى جنوب وجنوب غربى شبه الجزيرة العربية . واحتفظ الائمة الزيديون بسلطتهم فى صنعاء والمنطقة المتاخمة لها فقط . وفى فترة تصاعد الصراع بين الدول الرأسمالية من اجل اقتسام العالم تعرض حوض البحر الاحمر للغزو الاستعمارى . وابدى المستعمرون البريطانيون نشاطا

الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية حاليا وكذلك اراضى نجران وعسير التى تعتبر الأن ضمن العربية السعودية (ملاحظة المؤلف) .



محموما فى هذه المنطقة ، حيث استخدموا عدن التى احتلوها فى عام ١٨٣٩ مرتكزا للسياسة البريطانية ليس فى الجزيرة العربية وحسب ، بل فى شرق افريقيا ايضا . وبعد ان حولت بريطانيا عدن الى مستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى والى قاعدة حربية اخذت تبسط نفوذها فى اعماق جنوب اليمن المكون من عدة امارات ومشيخات اقطاعية متعادية فيما بينها . وفرض المستعمرون البريطانيون على تلك الامارات والمشيخات معاهدات الزمت الشيوخ العرب ، مقابل معونات مالية ، بان يحولوا دون اية نضالات ضد الانجليز ويؤمنوا سلامة الطرق ويزودوا القوات البريطانية بالاغذية * .

وبعد فترة من احتلال بريطانيا لعدن استأنف الحكام العثمانيون التوسع فى اليمن ساعين الى الاثراء من استثمار السكان اليمانيين . وفى عام ١٨٤٩ استولت القوات العثمانية على ساحل البحر الاحمر فى عسير واليمن الشمالى ، الا ان القبائل اليمانية اوقفت تغلغل تلك القوات الى اعماق البلاد .

وبافتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ ازداد كثيرا دور البحر الاحمر فى الاستراتيجية الحربية والتجارة ، كما ازداد بخاصة دور مضيق باب المندب الذى يتميز بموقعه الحساس على اقصر طريق بحرى يربط اوربا ببلدان الشرق . ولذا نشطت الدول الكبرى سياستها الاستعمارية فى حوض البحر الاحمر .

واخذت فرنسا وايطاليا تبديان اهتماما متزايدا بحوض البحر الاحمر الذى لم يكن قبل ذلك يسترعى الانتباه كثيرا . فاستولت فرنسا على الساحل الافريقى لمضيق باب المندب وانشأت فى ستينات — ثمانينات القرن التاسع عشر مستعمرة صغيرة ، لكنها هامة من الناحيتين الاستراتيجية والسياسية ، وهى مستعمرة جيبوتى او الصومال الفرنسى . وحاول المستعمرون الفرنسيون كذلك ايجاد موضع قدم لهم على الساحل العربى لمضيق باب المندب مؤملين فى الاستفادة من كون التاجر الفرنسى رابو قد اشترى من احد الشيوخ العرب فى عام ١٨٦٨ قطعة ارض فى

* Aitchison C. U. A Collection of Treaties, Engagements and Sanads. vol. 13. Delhi, 1933, pp. 57-67.

رأس شيخ سعيد بجنوب الجزيرة العربية . الا ان مقاومة بريطانيا وتركيا وكذلك التوتر فى العلاقات بين فرنسا وبروسيا التى سرعان ما اسفر عن الحرب بينهما قد ارغم فرنسا على التخلى عن خططها لترسيخ مواقعها فى شبه الجزيرة العربية .

وانخرطت ايطاليا هى الاخرى فى الصراع من اجل الاقتسام الاستعمارى للعالم واختارت شمال شرقى افريقيا اول هدف للتوسع الاستعمارى الايطالى .

وحظيت ايطاليا بتشجيع من بريطانيا التى كانت تعتبر الطليان وسيلة لمقاومة النفوذ الفرنسى فى شرق افريقيا ، فاستولت فى سبعينات – ثمانينات القرن التاسع عشر على الساحل الجنوبى الغربى للبحر الاحمر ، وحولته فى عام ١٨٩٠ الى مستعمرة اريتريا الايطالية . وفى الفترة ١٨٨٥–١٩٠١ فرض المستعمرون الطليان ، بموافقة بريطانيا ، الحماية على اراضى الصومال الواسعة .

وفى نفس وقت التوسع الفرنسى والايطالى تقريبا فى البحر الاحمر بدأت مرحلة جديدة فى سياسة الامبراطورية العثمانية الاستعمارية فى جزيرة العرب . فقد وصلت الى اليمن من خلال قناة السويس قوات عثمانية كبيرة انضمت الى القوات العثمانية المرابطة فى تهامة واخذت تتغلغل فى اعماق اليمن ، وانتهت الى احتلال صنعاء عام ١٨٧٢ وتحويل اليمن الشمالى الى ولاية عثمانية .

وبعد احتلال شمال اليمن قرر العثمانيون استعادة سيطرتهم السابقة على جنوبه . الا ان غزو القوات العثمانية لسلطنات جنوب اليمن فى ١٨٧٢ واحتلال اراضى قبائل حوشبى وصبيحى واميرى قد واجه مقاومة شديدة من جانب بريطانيا وارسى بداية الصراع الانكلوعثمانى المرير من اجل النفوذ فى جنوب جزيرة العرب . وقد جرت العادة فى علم الاستشراق السوفييتى على تقسيم هذا الصراع الى ثلاث مراحل .

فى المرحلة الاولى (١٨٧٢–١٨٧٦) اعتبرت الامبراطورية العثمانية نفسها صاحبة السيادة فى اليمن كله ، فقامت بعدة محاولات لالحاق الامارات اليمانية الجنوبية بولاية اليمن ، بينما سعت بريطانيا بكل الوسائل الى توسيع منطقة نفوذها التى كانت



آنذاك محصورة بتسع قبائل كبيرة هى الاقرب الى عدن – عبدلى وصبيحى وفضلى ويافع والعوالق وحوشبى واميرى وغيرها وكانت حينئذ فى علاقات صلح مع بريطانيا وليست محميات بعد * .

وشهدت المرحلة الثانية (١٨٨٦–١٨٩٥) من الصراع الانكلوعثمانى فى جنوب الجزيرة انتقال بريطانيا الى الهجوم وفرض الحماية البريطانية على امارات جنوب اليمن . وقد بدأت هذه المرحلة فى فترة تحول الرأسمالية الى امبريالية . فالتبدلات الاقتصادية المرتبطة بتفاوت التطور الاقتصادى والسياسى قد غيرت تناسب القوى على الصعيد العالمى . واخذت بريطانيا تتخلف من حيث وتائر التطور الصناعى عن البلدان الرأسمالية الفتية وتفقد بالتدريج مواقع الهيمنة على السوق العالمية .

وكان اشتداد المنافسة الناجم عن التفاوت فى التطور الاقتصادى قد دفع البلدان الرأسمالية ، لا سيما بريطانيا وفرنسا ، الى البحث عن اسواق تشكل ملاذا من خطر المنافسة . «فبالنسبة للرأسمال المالى تتسم باهمية موارد الخامات المحتملة فضلا عن الموارد المكتشفة . وهذا هو سبب سعى الرأسمال المالى حتما الى توسيع الرقعة الاقتصادية ، بل توسيع الاراضى عموما . . . ان الرأسمال المالى عموما يسعى الى الاستيلاء على اكبر مساحة ممكنة من الاراضى مهما كانت واينما كانت ومهما كلف الامر ، نظرا لموارد الخامات المحتملة وخوفا من التخلف فى الصراع المسعور من اجل البقية الباقية غير المقتسمة من العالم او من اجل اعادة تقسيم ما تم اقتسامه» ** .

---

* اذا نظرنا الى خريطة اليمن يتضح لنا السبب الذى جعل المستعمرين البريطانيين يربطون هذه القبائل التسع على وجه التحديد بمعاهدات الصلح . فاراضى هذه القبائل تشكل تغطية متينة من جهة البحر لمستعمرة عدن الهامة من الناحية الاستراتيجية الحربية ، وتشكل «منطقة عازلة» تمر حدودها اساسا بقمم السلاسل الجبلية ، الامر الذى يحول دون التغلغل الى اراضى ما يسمى «بمحمية عدن» من المؤخرة ، ويهيىء فى الوقت ذاته رأس جسر للتغلغل البريطانى فى اعماق اليمن (ملاحظة المؤلف) .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٧ ، ص ١٤٦ «الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية» .